

جوانب من استراتيجية الجنرال ليوطي بالجنوب الغربي الجزائري Aspects of general lyautey strategy in the Algerian south-west

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة الدكتور الطاهر مولاي بسعيدة - الجزائر	د. موساوي مجدوب* medjdoub70@yahoo.com
---	--

النشر: 2021 / 02 / 26

القبول: 2021 / 02 / 05

الإرسال: 2020/12/18

ملخص: يتناول مضمون هذا المقال جوانب من استراتيجية الجنرال ليوطي بالجنوب الغربي الجزائري التي اجتهد فيها لتحقيق أهداف جمهورية فرنسا الثالثة، المبنية على مواصلة التوسع وإتمام احتلال كامل الجزائر، وقد اعتمد في إستراتيجيته هذه على أساليب مختلفة وطرق جديدة عما كان في السابق وذلك بتركيزه على سياسة التدخل السلمي والطرق الغير عسكرية، وتطبيقه لمنهج التهدئة والمراقبة، بغرض استمالة سكان المنطقة ثم إخضاعها وقتل روح المقاومة بها بأقل قوة ممكنة.

الكلمات المفتاحية: الجنوب الغربي الجزائري، ليوطي، الجمهورية الثالثة، بشار، السكة الحديدية.

Abstract: The content of this article deals with aspects of general lyautey strategy in southwestern Algeria, in which he pursued the objectives of the third republic of France, which is based on the continued expansion and full occupation of the university of Algiers and non – military methods, and the application of calm and control in order to attract the population of the region and then subdue and kill the spirit of resistance with least force possible.

Keywords: southwestern Algeria; Lyautey; third republic; Bechar; railway.

مقدمة:

يدخل الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية ضمن السياسة التوسعية التي انتهجتها فرنسا والتي أرادت من خلالها أن تتم احتلال كل الجزائر، ومنها تمهيد الطريق للتوغل نحو غرب إفريقيا خدمة لمصالحها، وهو ما عملت لأجله جمهوريتها الثالثة في سياستها المبنية على ضرورة احتلال كل شبر من أرض الجزائر، باستعمال وسائل وطرق مختلفة عما جرى في السابق.

* د. موساوي مجدوب، medjdoub70@yahoo.com

وحسب قادة هذه الجمهورية الثالثة فعدم إتمام احتلال الجزائر منذ نصف قرن من الدخول، سببه سياسة استعمارية عاجزة أو فاشلة انشغلت فيها فرنسا في محاربة المقاومات المسلحة والعصيان الشعبي، عوض العمل على قتل روح هذه المقاومات باستعمال وسائل مادية ومعنوية، لذا كان لزاما عليها تغيير هذه السياسة التي اعتمدت فيها على تنظيم عسكري فرضته مدة زمنية طويلة أثبت فشله، لذا قررت فرنسا تطبيق النظام المدني لاستكمال سياسة الإدماج الإداري الذي بدأ منذ سنة 1834. وألحق مرسوم 1870/10/24 الجزائر بوزارة الداخلية ورافق هذا التحول في النظام الإداري تغيير الحاكم العام العسكري بحاكم عام مدني، تحقيقا لأهداف المعمرين وتجسيدا لرغبة المستوطنين الأوروبيين الذين اتخذوا من الجزائر وطنا لهم، والقضاء على روح المقاومة، ومسح مقومات الشخصية الجزائرية، ومنه تحويل الجزائر إلى مستعمرة استيطانية أوروبية حقيقية (بوعزيز، ي، 1986، 179، 388).

وباعتبار أن الصحراء الجزائرية عامة، والجنوب الغربي الجزائري خاصة جزء لا يتجزأ من الجزائر لم يسلم سكانه من هذه السياسة التي اعتمدت فيها فرنسا في جوانها على الاستثمار العام والخاص، وعلى التنظيم الإداري المحكم، وعلى القوة العسكرية، وذلك من خلال تعيينها للجنرال ليوطي الذي اتبع خطة معاكسة عن أولئك الحكام الفرنسيين الذين سبقوه، إذ سارع إلى التراجع عن أهدافهم العسكرية الحذرة بالمنطقة والتي جعلت الاحتلال محصورا في دائرة ضيقة من الأراضي التي تحيط بالمراكز العسكرية في جبال القصور ووادي زوفانة (أنظر التعليق رقم 1) والساورة (روس، إد، 2006، 238).

ولأجل ذلك اعتمد ليوطي في خطته على سياسة التدخل السلمي، من خلال التركيز على الطرق الغير العسكرية، بتطبيقه لمنهج التهدئة والمراقبة، حتى يتمكن من إخضاع سكان المنطقة بأقل قوة ممكنة ومنه تحقيق التوسع الاستعماري، إذ كان ليوطي يعتقد هو وأتباعه من الضباط بأن السكان على العموم يرغبون في التغيرات المتقدمة التي كان يتهيأ لإدخالها، وتبعا لهذه القناعة فإن الجيش كان يرى أن المقاومة مجرد حالة استثنائية وظاهرة شاذة، وغير شعبية بصفة عامة سببها الشعور بالخوف القائم على الجهل بمقاصد الجيش وأهداف فرنسا، أو إلى عمل المتواطئين الذين يتمنون إفساد مهمة فرنسا لأسباب تتعلق بالمصلحة الشخصية أو التعصب الديني (روس، إد، 2006، 240).

نهدف في مقالنا التاريخي هذا إلى تسليط الضوء على استراتيجية ليوطي بالجنوب الغربي الجزائري وإعطاء صورا ونماذجا عنها بالإجابة على إشكاليته المتمثلة في: التعريف به وبالأسس التي تبناها في استراتيجيته بالمنطقة ونتائجها؟ وردود أفعال هذه المنطقة؟

أما بخصوص الدراسات السابقة فإننا لم نجد دراسة مفردة حول الموضوع باستثناء ما أورده لنا روس إ.دان. في كتابه الموسوم "المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي" والذي لم يلتزم فيه بالموضوعية في طرح أفكاره خدمة للاستعمار الفرنسي وهو الأمر نفسه مع ما نشرته جمعية الجغرافية لمدينة وهران في كثير من أعدادها وهو ما جعلنا نتعامل بحذر مع هذه المصادر التاريخية. ومن أجل تحقيق أهداف البحث ووضع الحلول لمشكلته اتبعنا المنهج التاريخي والذي اعتمدنا فيه على التحليل والاستنتاج.

1- التعريف بالجنرال ليوطي:

اسمه الكامل هو لويس هوبير كونزالف ليوطي Louis Hubert conzalve Lyautey، ولد سنة 1854 في نانسي، نشأ في أسرة تسيطر عليها التقاليد العسكرية.

علاقته بقبائل الجنوب الغربي الجزائري تعود إلى سنة 1903، لما عين على رأس دائرة عين الصفراء في 1 أكتوبر من نفس السنة من طرف الحاكم العام جونار jonnar، الذي منحه الحرية الكاملة في التصرف حتى أنه كان يتصل مباشرة به، وبوزير الحرب دون احترام السلم العسكري الذي يمر من قطاع وهران (Lyauty, H, 1937, 13).

تقلد عدة مهام في السلطة ما بين 1903 إلى 1912 منها:

- إشرافه على تنظيم وتقوية الفرق العسكرية الصحراوية.

- حاكم أعلى لقسم عين الصفراء ما بين 1903 إلى 1906.

- حاكم لمقاطعة وهران عام 1906.

- ضابط أعلى للأمن في منطقة الحدود الجزائرية المغربية عام 1908 إلى أن عين مقيما عاما لفرنسا في المغرب بعد عقد الحماية عام 1912.

جمع ليوطي في ممارساته الميدانية بالجنوب الغربي الجزائري بين الغزو العسكري ونهج الأساليب السياسية، وفي شخصه بين القائد الحربي والسياسي والإداري المحنك. توفي سنة 1934. (مزيان، أ، 2007، 187؛ روس، إ.د، 2006، 238).

2- أسس استراتيجية الجنرال ليوطي بالجنوب الغربي الجزائري:

اعتمد ليوطي في استراتيجيته قصد إنجاحها على مساعدة فرق خاصة من الضباط الشباب في مصلحة الاستخبارات المعروفة من قبل بمكتب الشؤون الأهلية (أنظر التعليق رقم 2)، كما كان معروفا أيضا قبل هذا بالمكتب العربي، إذ كان هؤلاء الضباط مدربين بشكل خاص على قيادة الوحدات العسكرية، والتفاوض على إخضاع قادة القبائل وإقامة الإدارات والأسواق المحلية والتعامل مع السكان المسلمين بشكل عام، كما كانت مهمتهم جمع الأخبار والأسرار بصورة منتظمة من الجواسيس المسلمين الذين كانوا يسافرون إلى مناطق المقاومة للاختلاط بالناس والتقاط

الأخبار المهمة، كما كانوا يتحصلون عليها من التجار وأصحاب القوافل وكانوا يأخذون مقابل عملهم هذا مالا .

هذه الخطة اعتمدها ليوطي حتى يتمكن من إخضاع المجتمعات والقبائل الموجودة على الحدود الجزائرية المغربية، وذلك بأقل قوة ممكنة بإعادة تنظيمه للنظام العسكري من خلال:
- إبراز قوة فرنسا العسكرية بطريقة تجعل القبائل المقاومة لها تضطر إلى طلب إقامة السلم بدون قتال (روس، إ.د، 2006، 238، 240)، أي إقناعهم بالعفو عنهم؛ وذلك بـ:

1-تقديم المنح المالية:

أسلوب من الأساليب الإغرائية؛ مثلا منحت فرنسا مكافأة مالية قدرها 4000 فرنك للقائد عبد الرحمن الأيوبي الكيلي، لأجل استمالة قبيلة بني كيل للفرنسيين حسب ما جاء في مذكرة الضابط الملازم إزار Izard رئيس مركز الفرطاسة (أنظر التعليق رقم 3) في 11/ 03/ 1911 (مزيان، أ، 2007، 288).

2-تمكين القبائل من العناية الصحية:

بدأ الاهتمام بهذا الجانب في بني ونيف منذ احتلاله عام 1902، وأنشئت لهذه العناية قاعة خاصة ببنية المركز العسكري لاستقبال وعلاج المرضى من سكان المنطقة، ثم شرع في بناء مستوصف في بداية أكتوبر 1904، وأصبح جاهزا لاستقبال المرضى في يناير 1905 (Bouchat, j, 1956, 614). هذا الانجاز لليوطي في المنطقة جعل الوالي العام جوناك يكتب عنه تقريرا إلى رئيس حكومة فرنسا بباريس بعد زيارته إلى بني ونيف في أكتوبر 1904، مخبرا بمنجزات السياسة المتبعة ويحث على ضرورة التركيز على الجانب الاجتماعي منها قوله: « علينا ... إعطاء الدليل لهؤلاء السكان المسلمين...، أننا نريد بكل الوسائل خدمة مصالحهم المادية »(مزيان، أ، 2007، 194).

لا نعتقد أن أحدا منا يرتاح إلى براءة ما قاله جوناك أو ما أنجزه ليوطي، فهل حقا أرادا خدمة المصالح المادية للسكان عربا كانوا أم بربراً؟ ألم يكن إنشاء المستوصفات بالجنوب الغربي الجزائري عامة من الوسائل السلمية الهادئة التي استخدمتها فرنسا بغرض غرس عقدة النقص في نفوس السكان من جهة وخلق الشعور لديهم أيضا بالتفوق الحضاري الأوربي الفرنسي، وبالتالي فرض الهيمنة والسيطرة على السكان!

3-توفير فرص تجارية للسكان:

وذلك من خلال إنشاء الأسواق وتشجيع حركة التجارة. وقد أكد جوناك في تقاريره كما سبق ذكره على تكثيف الأعمال الاجتماعية مع السكان ومتابعتها لإنشاء المزيد من الأسواق وجلب السكان إليها، وبناء المراكز الأهلية للتمريض والمدارس ومعالجة النقاط المائية وشق طرق المواصلات (مزيان، أ، 2007، 196). ومن الأسواق الهامة التي أنشئها الجنرال ليوطي نجد:

سوق بني ونيف:

بني من طرف مكتب الشؤون الأهلية؛ إذ أصبح من أهم الأسواق في المنطقة خصوصا بعد أن وصلت إليه السكك الحديدية، فوجدت القبائل الرحل من بني كيل (أنظر التعليق رقم 4)، ذوي منيع وأولاد جرير أغراضها فيه، إذ توافدت إليه بأعداد كبيرة قصد بيع منتجاتها من غنم وصوف وحبوب وتمور مقابل شراء الشاي والسكر والقهوة ومواد النسيج والمواد المصنعة المختلفة. إذ أن أهمية سوق بني ونيف تجاوزت حدود منطقته، إذ وصلت إلى تافيلالت التي كان تجارها يقدمون إليه بأعداد أكثر من تلك التي كانت تذهب إلى عين الصفراء، وأهمية هذا السوق تعكسه الأرقام، إذ كانت تعمل به 26 شركة جزائرية تروج في تجارتها ما قيمته 130 ألف فرنك، حيث أنه ممر عبور للقوافل التجارية، ففي سنة 1904 مر عبر هذا المركز 10600 رجل و27047 جمل وتتم المتاجرة في 20350 من رؤوس الأغنام (روس، إ.د، 2006، 247).

سوق كولومب بشار:

بني هذا السوق في خريف 1903 بغرض إخضاع قبيلتي ذوي منيع وأولاد جرير للفرنسيين وأن الجيش الفرنسي جاء ليبقى في المنطقة، وعمل ليوطي على تشجيع تجار يهود تافيلالت على إقامة المتاجر به وكان هذا السوق بمثابة نقطة انطلاق الشركات الصحراوية منه إلى مناطق أخرى؛ كما أقيم في أواخر 1907 مركز صغير على سهل كبير.

وبالرغم أن هذه الأسواق لعبت دورا حيويا في تنشيط ديناميكية الاقتصاد من جهة، وساهمت في تدعيم العلاقات الاجتماعية بين قبائل المنطقة خاصة المتناحرة من جهة ثانية، إلا أن ليوطي كانت أهدافه من تأسيسها أبعد من هذا بكثير فاستراتيجيته هذه المتمثلة في إقامة الأسواق كانت أنجع الطرق لتعدد أهدافها، فاستخدمت لأجل عملية المراقبة التي يمارسها الاحتلال على قبائل كل المنطقة.

كما اعتبرت موردا ماليا للاستعمار من خلال إجبار هذه القبائل على دفع ما وجب عليهم من زكاة وعشور وفروض وغرامات؛ وإلى جانب هذا الهدف الجبائي، فإن الأسواق جعلها ليوطي وسيلة لتمرير مبادرات فرنسا ومقاصدها السياسية بين القبائل، وترصد أخبارها وتنقلاتها، وبالتالي فرض السلطة الفرنسية بالمنطقة وإخضاع سكانها وإذلالهم واستنزاف الخيرات مادية كانت أم بشرية ومحاربة المقاومة عن طريق هذه القوانين والإجراءات. وقد لقي ليوطي كل الدعم والتأييد في استراتيجيته هذه من مختلف أعضاء الحزب الاستعماري الفرنسي (روس، إ.د، 2006، 249، 256، 263؛ مزيان، أ، 2007، 118، 188)، أضف إلى ذلك:

- الاعتماد على التهدة الشاملة وغير المتسعة. (Lyauty, H, 1937, 48, 56)

- تشديد المراقبة الفرنسية على طول الحدود من البحر المتوسط إلى وادي الساوره، بخلق خطوط أمامية من المراكز ودوائر العمليات العسكرية، تمهيدا لإنجاز بناء خطوط السكك الحديدية الشمالية والجنوبية معا، والتي يكون لها دور في تسهيل عملية التقدم المتدرج، ومن ثم غزو كل الصحراء، ولتحقيق هذا سارع ليوطي إلى:

- احتلال بشار في أكتوبر 1903، والذي سماه كولومب Colomb، والذي أصبح يعرف فيما بعد باسم كولومب بشار (Lyauty, H, 1937, 56, 58, 111, 213-215).

ورغم هذا الانجاز الذي حققه ليوطي من احتلال مناطق جديدة، إلا أنه لم يكتف بها وهو ما يبرره قوله من خلال رسالته إلى الوالي العام للجزائر سنة 1904: « في الوقت الحالي فقد وسعنا كثيرا مراكزنا للمراقبة وجمع المعلومات... ويجب أن تمتد تحركاتنا لوادي كير (أنظر التعليق رقم 5) ... وهذا سيقودنا إلى إقامة مركز في البحيرة نتمكن بواسطته من تحقيق الحماية الكاملة لمجال حوض زوفانة » (مزيان، أ، 2007، 190) وفعلا قد تمكن ليوطي من إخضاع قبائل بني كيل المعارضة مع نهاية سنة 1904، ومن فتح خط السكك الحديدية في أكتوبر من نفس السنة بين بني ونيف وبن الزيرق ليتم تمديده نحو كولومب بشار في حدود جويلية 1905 (Augustin et Lacroix, 1906, 611).

1- نتائج استراتيجية ليوطي بالجنوب الغربي الجزائري : من هذه النتائج نجد:

- مد خط السكة الحديدية من عين الصفراء إلى بشار : أشرف الوالي العام للجزائر "la ferrière" شخصا على تدشينه في 1900/2/1 من عين الصفراء إلى جنين بورزق، ومنه إلى الزوبية في نفس العام ثم إلى بني ونيف في 1903/8/2، ومن بني ونيف وصل الخط إلى بن زيرق في 1905/2/4 وإلى بشار في 15 أكتوبر من نفس العام.

خط السكة الحديدية ساهم في تحقيق توسعات فرنسية بالمنطقة، ومنها إلى الصحراء الجزائرية، فقد اعترف دافيد ليفاط بقوله عنها: "أنها أداة استراتيجية في إنجاح سياسة التغلغل السلمي في المنطقة". كما أن تقارير ضباط الاستخبارات الفرنسيين لم تخف أهمية هذه الوسيلة في الغزو والتوسع (مزيان، أ، 2007، 196، 198).

- مد أعمدة أسلاك التلغراف : مدت هذه الأعمدة بمحاذاة خط السكة الحديدية لربط كل المراكز العسكرية الفرنسية في المنطقة ببعضها لتسهيل عملية المراقبة والاتصال، فإلى جانب مكاتب التلغراف والبريد المقامة بعين الصفراء، أنشئ مكتب تلغراف بصفيصيفة وبفوناسة، وآخر ببني ونيف عام 1903 (Signée, I, 1903, 257-263) وامتد خطوط سلكية تلغرافية أخرى في الظهرة إلى الفرطاسة الغربية عام 1905.

- تحقيق توسعات من خلال احتلال مناطق جديدة: وذلك باحتلال كل من بني ونيف وبشار، مما دفع بالحاكم العام جوناك إلى إعادة تنظيم قسم عين الصفراء، ليتقلص بذلك دور تاغيت من مركز للدائرة إلى مركز، ثم أنشئت دائرة جديدة مع مقر للقيادة في كولومب بشار، ويصبح بني ونيف عوض جنان الدار مركزا للملحقة مسئولاً مباشراً عن القسم؛ ومن الناحية العسكرية تعني أن كولومب بشار سيكون مركزاً جديداً للعمل وليس مركزاً هامشياً تابعاً لتاغيت (روس، إ.د، 2006، 244).

- احتلال بشار كان دافعا وعاملا مهماً مساعداً لفرنسا في مراقبة سهل قير من جهة، ومن جهة ثانية دافعا أيضاً لقبيلتي أولاد جرير وذوي منيع إلى الجنوب للسلم، خصوصاً عندما منعت فرنسا الحرث والحصاد في المنطقة والذي كانت نتائجه وخيمة على القبيلتين. هذا الأسلوب الجديد لليوطي أجبر قبائل المنطقة على تحسين علاقاتها مع السلطات الفرنسية.

- احتلال حوض قير وزوزفانة فرض على كل خيمة من خيام ذوي منيع وأولاد جرير إعادة النظر في وضعية علاقاتها السياسية مع الفرنسيين، ومع جيرانهم في تافيلالت معاً، فاختيارات المقاومة أو الاستمرار في العزلة في تافيلالت وحولها قد بدأت أمراً غير ممكن بعد فشل الحركة في تاغيت.

- وفر الاحتلال فرصاً تجارية مغرية في المنطقة خصوصاً بوصول السكك الحديدية إلى بني ونيف سنة 1903، والتي ساهمت في تطور المنطقة من خلال تدفق المواد الأوروبية وهو ما كان يرغب فيه ليوطي حتى يتخلى السكان عن المقاومة ويتعايشوا مع فرنسا، معتقداً أن تحسين حالتهم الاجتماعية كافية لتحقيق رغبته في القضاء على مقاومتهم.

- تمكنت قبيلة ذوي منيع من الحصول على الأمان من فرنسا ما بين 1904 و1908، مما منحها وضعية سياسية خاصة، تسمح لها بالتنقل بكل حرية بين قير و تافيلالت لتعبد نخلهم أو للتجارة دون أن يتعرضوا لاعتداءات آيت خباش (أنظر التعليق رقم 6) والعناصر الأخرى من المقاومة، وأصبحوا يسمون بالمنضمين ralliés عوض الخاضعين للسلطات الفرنسية (روس، إ.د، 2006، 249؛ مزيان، أ، 2007، 116).

- تهديد فرنسا للقبائل الأخرى التي لا ترغب في التفاهم مع فرنسا وبصفة خاصة أولاد جرير بفرض ضغوطات اقتصادية من خلال مصادرة منتوجاتهم من التمر، أو حجز كل أملاكهم أو تدمير البساتين وأنظمة السقي وحقول الزرع أو المواشي والتسبب في كارثة لأية قبيلة.

عملت فرنسا في نفس الوقت على تهيئة الظروف الملائمة لإقامة السلم بين القبائل، ومن أجل توسيع التجارة أجبر قبيلة المفالحة وهي فرع منهم إلى الخضوع الرسمي لفرنسا والتي استفادت من قانون الخاضعين soumis، وبالمقابل بقيت جل خيام قبيلة العساسعة، والتي تعتبر أكبر فرع من

أولاد جرير بعيدة عن ضغوطات فرنسا كونها لا تملك النخيل في بشار (روس، إ.د، 2006، 257؛
(Albert, F, 1905, 396).

- استفادة قبيلتي ذوي منيع و أولاد جرير من النشاط الاقتصادي الجديد المتمثل في التجارة التي جاءت بها السكك الحديدية و أسواق ليوطي، وبصفة خاصة ذوي منيع الذين كانوا يقومون بالتجارة لحسابهم الخاص من خلال عملية البيع والشراء، أو من خلال ما كانوا يقدمونه من خدمات كناقلين مشرفين على التجار المسلمين واليهود (Canavy, 1906, 547).

- استفادة سكان توات من الواردات الأوروبية كالسكر والشاي... والتي أصبحت توفرها السكك الحديدية، وبأثمان منخفضة أكثر من تلك التي يمكن الحصول عليها من المغرب (فاس)، بالإضافة إلى ذلك كانت أكبر المجموعات القاطنة بالوحدات تتوفر على فائض من التمر والمواد المحلية الأخرى لبيعها خارج المنطقة، واستجابة لذلك جعلت مكاتب الشؤون الأهلية سياسة أسواقها تقوم على شراء كل المواد المحلية المعروضة للبيع بأثمان مغرية (روس، إ.د، 2006، 264).

وبالرغم من أن فرنسا غيرت نظامها إلى الجمهوري، فإن أهدافها الأساسية من وراء استعمارها للجزائر لم تتغير في تلها أو صحرائها، فأهدافها بقيت نفسها سواء كانت تحت النظام العسكري أو المدني مبنية على الهيمنة والعنصرية والاستيطان، بخلق إدارة استعمارية عملت على تكريس الاستعمار الرسمي خاصة في عهد الجمهورية الثالثة التي كثفت من القوانين والتشريعات الإدارية والإصلاحات الاقتصادية التي تضمن بقاء وسيادة العنصر الأوربي في الجزائر، بتدمير البنية السياسية والاجتماعية الموجودة في الجزائر؛ وفي المقابل أكد الشعب الجزائري منذ سنة 1830، رفضه التام للاستعمار الفرنسي، ووجد هذا الأخير نفسه في مواجهة وعي وطني تجسد في مقاومته رغم النقص الشديد في الإمكانيات، واتخذت هذه المقاومة أشكالاً عديدة وأكدت على هوية الشعب الجزائري ورغبته في التخلص من الاستعمار الذي حاول أن يقمعها بكل الوسائل.

المقاومة المسلحة:

حقيقة لا يمكن إنكارها فجميع قبائل المنطقة عربا كانوا أم بربراً، لم يتخلفوا أو يتأخروا في الوقوف ضد مد السيطرة الفرنسية إلى بلادهم بكل الوسائل الممكنة، وكان هذا بطريقة تلقائية ورفضوا أي نوع من الانفتاح والتعامل مع الفرنسيين أيا كانت صبغته تجارية أو سياسية، واستغرق هذا الموقف لسكان المنطقة ما يزيد عن نصف قرن فقد جوبهت عساكر فرنسا بالعداء أول ما وطئت أقدامها الجنوب الغربي الجزائري عام 1847 (De la Martinière, H, et Lacroix, N, 1847, 414).
1896.

وكثيرا ما كانت تتعرض القوات الفرنسية لهجمات السكان والثوار كلما سنحت لهم الفرصة بذلك معبرين عن رفضهم القاطع لهذه المشاريع ومن هذه الهجمات نجد على سبيل المثال لا الحصر:

-استمرار مقاومة الشيخ بوعمامة رغم أنّ فرنسا عرضت على الشيخ الأمان إلا أنّه رفض وفضل الكفاح على الاستسلام والخضوع.

-هجوم قبيلة أولاد جرير في 29 مارس 1903 على فصيلة عسكرية في بئر قصر العزّوج من أجل اغتصاب جمالها أسفر على مقتل 8 جنود فرنسيين منهم العريف فورييه لوفي (Fourier lavy) و6 جرحى.

-هجوم قبيلة أولاد جرير وبني كيل ومجموعة من البربر على قافلة تمويل فرنسية متوجهة نحو بني عباس في 6 ماي 1903 أسفر على مقتل وجرح عدد كبير منهم.

-معركة قبيلة ذوي منيع والبربر ضد عمليات الغزو التي قام بها القائد بيرون (Perron) في عقلة بردا في 3 ماي 1904.

-هجوم قبيلة الشعانبة والبربر على دورية من الكتيبة الصحراوية لقورارة في 11 ديسمبر 1904 تمكنت من أسر 5 من أفرادها، وبعد يومين هاجموا قافلة البيض وقتلوا منهم 40 شخصا واستولوا على حوالي ألف جمل؛ مما أجبر القوات الفرنسية إلى إعلان الاستنفار في كل من بني ونيف وبشار وتاغيت وبني عباس وتميمون لملاحقة المهاجمين نتج عنه تجدد الاشتباكات بينهم بغارات دويّفة شمال مريجة.

هذه الهجمات والمعارك ظلت مستمرة ولم تتوقف لصد الاحتلال الفرنسي بالجنوب الغربي الجزائري ورفض إغراءات ليوطي؛ ففي مارس 1908 حدثت معركة قرب داوارا لدحر البعثة الاستكشافية المتجهة نحو الغرب حيث قام المكافحون بمحاصرة القوات الفرنسية المخيمة بالحماة ليلا والهجوم عليها؛ مما أسفر عن مقتل الملازم رونييه (Régnier) وجرح العديد من أفرادها. وفي أواخر شهر سبتمبر من سنة 1908 تمكن القائد بوجمعة بن جمعا الجريري مع قوة وطنية من الحاق هزيمة بالقوات العسكرية الفرنسية ببشار التي فقدت عددا من جنودها وبعض ضباطها. كما استمرت غزوات وهجمات السكان على الجيش الفرنسي طيلة عام 1909. وفي يوم 23 ماي 1911 وقعت معركة القطارة بين القوات الفرنسية وحوالي 150 مجاهد من أولاد جرير، وفي يومي 29 و30 نوفمبر 1912 وقعت معركتي بئر زمالة وفريزم على تخوم عرق شاش.

وبالرغم من أنّ الجنرال ليوطي اجتهد في قمع مقاومة السكان من خلال استراتيجيته السابقة المذكورة؛ إلا أنّ استراتيجيته هذه لم تزد سكان الجنوب الغربي إلا إصرارا لرفض واقع الهيمنة والاستيطان اللذين أرادا فرضهما عليهم بالقوة تارة وبالإغراء تارة أخرى، فقد ظل البدو والحضر

عرباً أو بربراً بهذه المنطقة في اتصال مستمر فما بينهم مُعارضين للنفوذ الفرنسي من خلال الهجومات المتكررة على المراكز الفرنسية وأعاونهم وغزو للفرق العسكرية والسطو على مواشيها وقتل حراسها وضباطها؛ مما أجبر وزارة الحربية الفرنسية على تعيين النقيب بول أزال (Paul Azal) حتى يفرض المراقبة على الحدود الجزائرية المغربية مع مطلع سنة 1907 (مياشي، إ، 1996، 112-124).

وإلى جانب هذه الأمثلة من المواجهات المباشرة بالسلاح مع جنود الاحتلال؛ عمل سكان المنطقة على استهداف رموز السيطرة الاستعمارية ودعائهم، إذ لم يتركوا أي رمز من رموز الاستعمار والاستيطان إلا وطأته أيديهم برمي الرصاص، وإتلاف المعدات ووسائل الاتصال، ومصادرة أموال المستوطنين الأجانب ومن هم في كنفهم أو انحاز إليهم من اليهود والمسلمين. ونجد في هذا نماذج أيضاً من خلال عرضنا لبعض الحوادث على سبيل المثال لا الحصر ومنها:

- أن فرقاً من قبيلة بني كيل في بداية سنة 1901 استولت على إبل وغنم وطلع مختلطة ببني ونيف وتاغيت ملكاً للتاجرين الإسبانين ميشال بكوس وأنطونيو بال.

- وفي 12 و 13 يناير 1901 انتزعت ثلاث جمال بجنان الدار من المستوطن الإسباني Tonic -وفي أوائل شهر ماي 1901 احتُجز قطع غنم من 300 رأس ملك لليهودي عيوش مالك بالمنطقة ما بين وادي الزوبية وجنان الدار.

كما عمل هؤلاء السكان على قطع أسلاك التلغراف وإتلاف خط السكة الحديدية، ففي 8 جويلية 1901 قطعت أسلاك التلغراف بجنان الدار لمسافة 140 متر وفي 1 أوت قطعت لمسافة 100 متر وفي 6 نوفمبر قطعت لمسافة 500 متر وحطمت خشبة للسلك وكسر عازل كهربائي، كما قطعت أسلاك التلغراف على طول العين الصفراء في 13 نوفمبر 1901؛ ففي ظرف 5 شهور تم فيها قطع أسلاك التلغراف تسع مرات لمسافة 2350 متر (مزيان، أ، 2007، 235، 237).

توظيف المسجد لمجابهة الاحتلال:

لعب الفقهاء وخاصة منهم خطباء المساجد دوراً هاماً في إذكاء الحماس في النفوس من أجل التصدي للأطماع الفرنسية، ومقاومتها بكل الوسائل، فمثلاً إحدى هذه الخطب شجعت احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر، ووهران، وتلمسان، ومعسكر بالأمور العظيمة الهائلة مثل القحط والطاعون، وأعظمها غلبة هذا الكافر الملعون، وورد في خطبة أخرى فتهيئوا أعانكم الله إن قدم إليكم (أي الجيش الفرنسي) لحربه وكونوا على حذر من مكائده ومكره (مزيان، أ، 2007، 239).

خاتمة:

في ختام مقالنا هذا ومما سبق ذكره نجد أن الجنرال ليوطي رغم أنه نجح إلى حد كبير في مشاريعه الظاهرة بمنطقة الجنوب الغربي الجزائري حسب ما كان يبدو لإدارة المستعمر (تقديم المنح المالية

– تمكين القبائل من العناية الصحية – توفير فرص تجارية للسكان – بناء خط السكة الحديدية – مد أعمدة أسلاك التلغراف...؛ إلا أنّ مساعيهم الخفية التي كان يرغب في تحقيقها من وراء مشاريعه في استمالة واستقطاب السكان إلى الاستعمار الفرنسي ومن ثمة تحقيق توسعات بتكاليف قليلة باءت كلها بالفشل، وهذا من خلال وعي وقوة تصدي لهذه الإغراءات من طرف سكان المنطقة والذي تجلّى بوضوح في الإصرار بالمقاومة وترخيص النفوس لوقف توسعات المستعمر إلى بلادهم بوسائل وإمكانيات دفاعهم المتواضعة رغم يقينهم وإدراكهم بقوة عدوهم.

التعليقات:

1-ينبع وادي زوزفانة من جبال بني سمير والسفاح وكروز، ويعرج شرق جبل كروز ثم ينحدر في اتجاه الواحة الفيججية فيحفها من جهة الشرق عبر العرجة إلى أن يخرج من فج تاغلة. وعلى طول قسمه هذا تطلق عليه أسماء عدة حسب كل مرحلة من بدأ منبعه، فيعرف على الأخص بوادي الحلوف، وإلى أن يعبر واحة بني ونيف عندئذ ينعت بنهر زوزفانة حتى يصب في وادي الساوره بمقربة من واحة إقلي (مزيان، أ، 2007، 40).

2-هم أتباع ليوطي تخصصوا في دراسة فنون ووسائل الاتصال بالسكان وعادات وتقاليد المجتمع الريفي، ألقوا لهجاته المختلفة حتى يسهل عليهم الاندماج فيه (بوعزيز، ي، بدون سنة، 248).

3-مركز عسكري أقامه الفرنسيون لأجل مراقبة قبيلة بني كيل، توجد في الضفة الغربية لشط تيكري، ويقع القعلول شمالها.

4-من قبائل البدو الرحل، ينقسمون إلى قسمين كبيرين: بنو كومن وبنو غمراسن، وكل قسم مكون من عدة مجموعات وفرق ودوا وير، تختلف أحجامها البشرية وثرواتها من المواشي، وصل عدد خيام هذه القبيلة عام 1906 حوالي 3200 خيمة حسب تقديرات "بوجي" (Bauger, L, 1907, 1).

5-واد مشترك بين الجنوبيين الشرقي المغربي والغربي الجزائري، يسمى عند مشارف إقلي من صحراء بشار بواد الساوره عند التقائه بواد زوزفانة، كما يسمى بمشارف بلاد توات بواد مسعود، ينتهي بصحراء تنزروفت، جنوب رقان من أدرار.

6-من القبائل الأمازيغية المغربية وهي من قبيلة أيت عطا الكبيرة، شملت أراضيهم مجمل حزام شبه الصحراء وأجزاء من الأطلس الكبير الجنوبي من حمادة قير إلى وادي الدرعة، وبصفة خاصة المراعي المحيطة بحوض وادي زيز السفلى.

المصادر والمراجع:

Canavy. (26(janv-march 1906)). Notes sur le commerce de Colomb – Béchar avec l'ouest. Oran: BSGAO.

Augustin (b) et Lacroix. (1906). La pénétration saharienne (1830-1906). Alger .

- Bouchat(j). (1956). Beni Ounif (sud oranais), étude géographique historique et médicale. Alger: Archives de l'Institut pasteur d'Alger.
- De la Martinière (H.M.P) et Lacroix (N). (1896). Document pour Server à l'histoire du nord-ouest africain (Vol. 2). Alger.
- F.Albert. (25(oct-dec.1905)). les Ouled djrir . Oran: BSGAO.
- L.T.Bauger. (1907). la confédération des benis guil (Vol. (T.XXVII)). Oran: Bull.Soc.Geo.Arch.Oran.
- Louis-Hubert-Gonsalve Lyauty .(1937) .Vert le Maroc : Lettres du Sud-Oranais, 1903-1906 .,Paris.
- Signée.l.p. (1903). Figuig. Alger: Bull. Soc. Géo D'Alger.
- أحمد مزيان. (2007). المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1912) (الإصدار 1، المجلد 2). الرباط، المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- روس إ.دان. (2006). المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية 1881-1912. (أحمد بوحسن، المترجمون) الرباط: منشورات زتوية.
- مياسمي إبراهيم. (1996). توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912). روية، الجزائر: مطبعة ANEP.
- يحي بوعزيز. (1986). كفاح الجزائر من خلال الوثائق. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- يحي بوعزيز. (بدون سنة). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، منشورات المتحف الوطني للمجاهد (الإصدار 2). الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد.